

حديث التقريب .. حافظ الشيرازي الخطاب الانساني



في التقويم الايراني 12 اكتوبر يوم حافظ الشيرازي، ومن اللازم أن نقف قليلا عند هذا الشاعر الكبير الذي تجاوز الاطار المذهبي والقومي فاصبح شاعر الإنسانية. ولذلك اهتم الباحثون العرب والغربيون بأدبه فعكفوا عليه ترجمة وشرّحًا وتعليقًا.

بداية لابد أن نشير إلى أن حافظ الشيرازي (شمس الدين محمد) أعظم شعراء الغزل في إيران على الإطلاق، ومن كبار شعراء القرن الثامن الهجري، ولد سنة 606هـ في شيراز، وجمع في ديوانه فني سعدي ومولانا جلال الدين.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ الغزل هو التغنّي بالجمال، وإظهار الشوق إليه، والشكوى من فراقه. والجميل المطلق هو (إِله) سبحانه، والغزليّ الحقيقي هو العاشق. والعشق هو التخلص من قيود الذاتية والأنانية، والسموّ في مدارج الكمال الإنساني من هنا فان لحافظ وأمثاله دورًا تاريخيًا كبيرًا في إيقاف الشعور، وتحرير الأمة من النظرات الضيقة، ومن ثم فإن لهم دورًا في توحيد الأمة واستنهاضها.

سمي حافظًا لأنه حفظ القرآن واستوعبه وتمثله في وجوده وفاضت قريحته من منهله، فهو ابن الحضارة الإسلامية، وثمره من ثمارها. وحافظ الشيرازي خير من يعبرون عن معنى «العشق» في الأدب الفارسي.

القسم الأعظم من ديوانه حديث عن «العشق» ضمن مقطوعات تسمى «الغزليات» وكل غزلية تتكون من عدد من الأبيات (في حدود 7 أبيات عادة) ذات قواف وأوزان متحدة، والبيت الأول مصرّع حتمًا، وكل بيت له معنى يكاد يكون مستقلًا عن غيره.

أول غزلياته يبدأها بشرط بيت عربي يدعو فيه الساقى أن يناوله كأسًا كي يخفّف عنه أثقال هموم العشق الذي بدا في أوله سهلاً، لكنّ ثقل أعبائه بدت على مرّ الأيام:
ألا يا أيها الساقى أدر كأسًا وناولها / كهـ عشق آسان نمود اول ولی افتاد
مشكلها

أي: «فالعشق بدا في أوله سهلاً ثم وقعت المشاكل»

وفي بيت آخر من هذه الغزلية يتحدث عن نفسه التي لا تدعه يستقرّ لأن شوط العمر قصير:
مرا در منزل جانان چه امن عیش چون هر دم / جرّس فریاد می دارد که بر بنید محملها
أي: «أيّ أمن عيش لي في منزل الحبيب، إذ في كل لحظة / يدق الجرس أن ارزموا محملكم». وفي بيت آخر من هذه الغزلية يشير إلى ما يحيط به من أهوال تعبّر عن الهموم الكبيرة التي يحملها، ويرى أن الذين يخلدون إلى الراحة ودعة العيش لا يفهمون ما يثقل صدور العاشقين:
شبّ تاریک و بیم موج و گردابی چنین هایل / کجا دانند حال ما سبکباران ساحلها
أي: «ليل مظلم وموج مخيف، ولجّة هائلة / من أين لسكان السواحل أن يعرفوا حالنا». ثم يدعونفسه لأن يسير على طريق العشق إذا أراد أن يكون حاضرًا، أي إذا أراد أن يكون ذا مكانة في ساحة الإنسانية المتكاملة:

حضوری گر همی خواهی از او غایب مشو حافظ / متى ما تلق من تهوی دع دنیا وأهملها
أي: «إذا أردت حضورًا مستمرًا فلا تغيب عنه يا حافظ / متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها». ويلاحظ أن البيت الأول الذي يشير فيه إلى سهولة العشق في بداية مراحلها، وظهور مشاكله وثقل أعبائه في مراحل تالية، له ما يشابهه في الغزل العربي، يقول الشاعر:

تولّع بالعشق حتى عشق / فلما استقلّ به لم يُطق

رأى لُجّة ظنّها موجةً / فلمّا تمكّن منها غرق

نار العشق: النار والنور من رموز الطاقة المحركة والضيء في الأدب. وعن ارتباط النار بالعشق يقول حافظ:

در ازل پرتو حسنت ز تجلّی دم زد/ عشق پيدا شد و آتش به همه عالم نازد

أي: «نور جمالك تجلّی منذ الأزل/ فظهر العشق وأضرم في العالم ناراً».

فالجمل هو الذي خلق العشق وأضرم النار في العالم. والبرق الذي سطع من منزل ليلی أضرم النار في بيدر مجنون:

برقی از منزل لیلۍ بدرخشید سحر/ وه که با خرمَن مجنون دل افگار چه کرد

أي: «لقد سطع من منزل ليلی في السحر برق/ آه، ماذا فعَلَ ببيدر المجنون المسكين».

أما نار الوادي المقدس فلم تبعث البهجة في قلب حافظ فحسب، بل إن موسد(ع) جاء إلى ذلك المكان على أمل الحصول على قيس:

ز آتش وادی ایمن نه منم خُرّم وبس/ موسی آنجا به امید قیسی می آید

أي: «لستُ وحدي جذلاً من الوادي الأيمن/ موسى (أيضاً) جاء على أمل قيس إلى ذلك الوادي».

* * *

العشق ولوم اللائمين : الحديث عن اللائمين يردده جميع العشّاق، ويكررون القول بأنهم لا يبالون بهؤلاء لأنهم لا يعرفون معنى العشق ولم يذوقوه. والحديث عن اللائمين نراه عند حافظ إذ يقول:

به رغم مُدّعیانی که منع عشق کنند/ جمال چهره ی تو دُجّت موجّه ماست

أي: «رغم الأدعياء الذين يمنعون العشق/ جمالك حجتنا الوجیة».

فالجمل حجة كافية للعشق رغم لوم اللائمين.

ويرى أن الزاهد المتمسك بالمظاهر لا يفهم حال العشاق فله الحق فيما يقول:

زاهد طاهر پرست از حال ما آگاه نیست/ در حق ماهرچه گوید جای هیچ اکراه نیست

أي: «الزاهد المتظاهر لا يعلم بحالنا/ فكلّ ما يقوله بحقنا لا يسيء إلينا».

وللعشاق ألف شغل في كل خصلة من شَعَر الحبيب فأين العشاق من اللائمين الفارغين؟!

هرسر موی مرا با تو هزاران کار است/ ما کجاییم و ملامتگر بیکار کجاست

أي: «لنا ألف شغل في كلّ خصلة من شعرك / أين نحن من هذا اللائم العاطل؟!»

* * *

الخروج من الذاتية: وللتفريق بين العاشق الحقيقي وبين طالب الشهوة يرى حافظ أن العاشق لابد أولاً

أن يتحرر من الذاتية، وإذا كان حبيس ذاته فهو لا يفهم العشق وأسراره:

با مدّعی مگویند اسرار عشق و مستی/ تا بی خبر بمیرد در درد و خود پرستی

أي: «لاتتحدثوا مع المدعي عن أسرار العشق / كي يموت جاهلاً في الألم وعبادة الذات».

ويفدي حافظ نفسه لمن بلغت همته أن يتحرر من كل ماله طابع انشداد أرضي:

غلام همّت آنم که زیر چرخ کبود/ زهر چه رنگ تعلّق پذیرد آزاد است

أي: «أنا غلام همّة ذاك الذي تحت السماء الزرقاء / قد تحرر من كلّ ماله لون التعلق بالأرض».

وطريق منزل ليلي محفوف بالأخطار والشرط الأول للسير على هذا الطريق أن تكون مجنونًا، أي عاشقًا حقيقيًا متحررًا من ذاته:

در ره منزل لیلی که خطر هاست در آن/ شرط اوّل قدم آن است که مجنون باشی

أي: «في طريق منزل ليلي المحفوف بالأخطار/ الشرط الأول لوضع قدمك في الطريق أن تكون مجنونًا». وأي معبود تتجه إليه خارج ذاتك هو أفضل من عبادة ذاتك:

گر خود بختی بینی مشغول کار او شو/ هر قبله یی که بینی بهتر ز خود پرستی

أي: «إذا رأيت صنمًا فاشتغل به/ كل قبله تتجه إليها أفضل من عبادة الذات».

وإذا أردت أن تسأل عن أسرار آلام العشق فاسأل ذلك من الشمعة لا من تيار الهوى:

خواهی که روشنت شود اسرار درد عشق/ از شمع پُرس قصه زباد هوا مپرس

أي: «إذا أردت أن تنصح لك أسرار العشق/ فاسأل عن القصة من الشمعة لامن تيار الهوى».

* * *

العشق لا يفهمه إلا الخواص؛ والخواص ليسوا هم الذين كدسوا المعلومات، بل هم الذين طهّروا قلوبهم

من كل ما سوى العشق، وهؤلاء هم الذين يعرفون أسرار العشق، والمدّعون لا يستطيعون أن يقفوا على

أسراره، بل إذا أرادوا التفرّج على ساحة الأسرار تصدهم يد الغيب عن ذلك:

مدّعی خواست که آید به تماشاگه راز/ دست غیب آمد و برسینه نامحرم زد

أي: «أراد المدّعي أن يأتي ليتفرّج على الأسرار/ فجاءت يدُ الغيب وضربت على صدر الأجنبي».

وما أجمل ما قاله الحلاج عن العشق، إذ قال لا تسألوا الشافعي (أي لا تسألوا العلماء والفقهاء) عن

مثل هذه المسائل:

حلاج برسر دار این نکته خوش سرآید/ از شافعی نپرسید امثال این مسایل

أي: «الحلاج على المشنقة، قال بشكل رائع هذه النكته/ لا تسألوا الشافعي عن أمثال هذه المسائل».

ومَحَرَم القلب هو الذي يبقى في حرم الحبيب، ومن ليس كذلك (الأجنبي) يبقى في الإنكار:

هر که شد مَحَرَم دل در حَرَم یار بماند/ و آن که این کار ندانست در انکار بماند

أي: «من أصبح مَحَرَمًا للقلب بقي في حريم الحبيب/ ومن لم يعرف كيف يكون محرمًا بقي في

الترديد».

وحديث العشق حديث النفس والقلب لا حديث العقل والمدرسة ومباحث القيل والقال الكلامية:

مباحثی که در آن حلقه جنون می رفت/ و رای مدرسه و قال وقیل مسأله بود

أي: «المباحث التي كانت تدور في حلقة الجنون تلك/ هي ما وراء المدرسة وما وراء القيل والقال».

* * *

العشق فطرة وحياة: الناس منجذبون فطريًا لعشق الجمال، سواء منهم من نهج طريق العقل أو نهج طريق

العرفان. وكلّ أماكن العبادة يعبّر فيها المؤمنون عن انشدادهم بالعشق:

همه کس طالب یارند چه هشیار وجه مست/ همه جا خانه عشق است چه مسجد چه کنشت

أي: «كل الناس يطلبون المعشوق، الصاحي منهم والثلث/ وكل مكان بيت للعشق مسجدًا كان أم كنيسًا».

والعشق موهبة وصلت الإنسان من ميراث الفطرة:

می خور که عاشقی نه به کسب است واختیار/ این موهبت رسید ز میراث فطرت

أي: «عبّّ المدام، فالعشق ليس بالكسب والاختيار / هذه موهبة وصلتني من ميراث فطرتي».

والعاشق العارف لم يتعلم سوى عشق جمال الحبيب:

نیست بر لوح دلم جز الف قامت دوست/ چه کنم حرف دگر یاد نداد استاد

أي: «ليس على لوح قلبي سوى ألف قامة الحبيب / ماذا أفعل إذ لم يعلمني أستاذي غير ذلك».

والعشق هو الحياة وليس سواه إلا الموت، ويُفتي حافظ بأداء صلاة الميت على من خلا قلبه من العشق:

هرآن کسی که درین حلقه نیست زنده به عشق/ بر او نمرده به فتوای من نماز کنید

أي: «كل من لم يكن في هذه الحلقة حيًا بالعشق/ بفتوای أقيموا عليه صلاة الميت وهو حي».

* * *

البلبل والوردة: كل الكون يتحرك بالعشق، والعلاقات بين الكائنات هي علاقة عاشق ومعشوق، وإلى هذه

الحقيقة يرمز حافظ في حديثه عن علاقة البلبل بالزهرة. فالبلبل يُنشد متغزلًا حين يبهره جمال

الزهرة:

بُلبل از فیض گُل آموخت سُخن ورنه نبود/ این همه قول و غزل تعبیه در منقارش

أي: «البلبل تعلم الكلام من فيض جمال الزهرة وإلا / ما كان كلّ هذا الكلام والغزل معبّأ في

منقاره».

والبلبل في تغريدة يُنشد ترانيم روحية يدعو فيها إلى الإمعان في جمال الزهرة وما تشعّبه من نور هو

ذاته ما رآه موسى (ع) من نار في طور سيناء، لتقرأ في هذا الجمال درس التوحيد:

بلبل زشاخ سرو به گلبانك پهلوی/ میخواند دوش درس مقامات معنوی

يعنى بيا كه آتش موسى نمود گل/ تا از درخت نكته توحيد بشنوی

أي: «البلبل من غصن شجرة السرو بالحن البهلوي/ كان ينشد أمس دروسًا في المنازل المعنوية/

تعال فقد أبرز الورد نار موسى لتسمع من الشجرة ترانيم التوحيد».

فالجمال يبعث في النفس ذلك العشق الذي يكسر صنم الذات ويجعل الإنسان يطلب الكمال المطلق وهو

تعالى.

هذه هي طبيعة الورد أن تشع بحسنها، وهذه هي طبيعة البلبل أن يكون قرين العشق. لا في تلك تغير

ولا في هذا تبدّل:

گل یار حُسن گشته وبلبل قرین عشق/ این را تغیری نه وآن را تبدّل

أي: «الورد أصبح قرين الحسن والبلبل قرين العشق/لا في هذا تغيّر ولا في ذلك تبدّل».

* * *

مما تقدم نفهم أن العشق في الأدب العرفاني الفارسي هو خروج الإنسان من ذاتياته وأناياته، لينطلق في رحاب الجمال المطلق، والحكمة المطلقة، والعلم المطلق، والرحمة المطلقة... وهذا العشق يجعله يحسّ بطاقة عظيمة تملأ وجوده فتدفعه على طريق كلّ صفات الجلال والجمال في حركة لا متناهية.. أي تحرّكه نحو الله سبحانه.

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الشؤون الدولية